

مقدمة

﴿فَسْتَأْذِنُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١).
﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَأَنَّهُمْ قُلُوبٌ نَّاقِرَةٌ مِنْ كُلِّ فَجْرَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ
لَيَسْفَفُوهَا فِي الَّذِينَ وَلِيْنَا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٢).
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٣).

(من يُرد الله به خيرا يفقهه في الدين) [حديث شريف].

أزور الإمام الشافعي كلما زرت القاهرة المحروسة.. فعند ضريحه الشريف أجد روحا لا أجدها إلا عنده.. عنده أجد الزهد والعفة وغنى النفس والرقى والارتقاء فوق سفاسف الأمور وعلو الهمة والشموخ والعلم قبل كل شيء.. العلم النافع الراقى.. أشرف العلوم.. علم الفقه وعلم الحديث.. هذان العلمان اللذان نذر الإمام حياته لهما وعاش من أجلهما وأقنى عمره في خدمتهما والعمل على إعلانهما ونشر كل ما فيهما من جواهر ودرر للناس جلاً وترحالاً.. فرحم الله إمامنا الشافعي ثالث الأربعة المجتهدين في الفقه الإسلامي من حيث ترتيب الميلاد.

(١) سورة الأنبياء، الآية ٧، سورة النحل الآية ٤٣.

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٢.

(٣) سورة فاطر الآية ٢٨.

نشأ الإمام الشافعي في عصر الانحراف في الحكم - بعد الفترة الراشدة والنمو الحضاري في المجالات الأخرى فكان الخط الحضاري لأمة الإسلام آنذاك - وكان الحكم بموجب قانون الصلاحية العامة التي تتداول بها الأمم النفوذ على مستوى الأرض في التفوق والتأثير «والأقل سوءا على الأكثر سوءا»: العلم والقوة والتأثير.

في ذلك العصر نبه الشافعي وصار داعية ثورة الحق والتكامل الحضاري ومؤسس علم أصول الفقه، وإمام مذهب تبعه الملايين من أمة الإسلام فكان قدوة لها وإماما إلى يومنا هذا.

وفي وسط مناخات مقاومة الانحراف والتسلط بالقوة والإكراه وُلد الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وتربى ينهل من المعارف والعلوم ما شاء له ذكاؤه وفطنته وعبقريته التي سجلها في ميراث علمي لا تبليه الأيام.

الشافعي هو ناصر الحديث ومجدد القرن الثاني فقد قال الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله: (يروى عن النبي ﷺ أن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، فكان عمر بن عبد العزيز على رأس المائة، وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى).

ودخل على أحمد بن سريج القاضي شيخ من أهل العلم سنة ثلاث وثلاثمائة وقال له:

(أبشر أيها القاضي، فإن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها، وإنه تعالى بعث على رأس المائة الأولى عمر ابن عبد العزيز وتوفى سنة ثلاث ومائة، وبعث على رأس المائتين أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، وتوفى سنة أربع ومائتين،

وبعثك على رأس الثلاثمائة) فصاح ابن سُريج باكيا وقال: إن هذا الرجل قد نعى إلى نفسي، ومات في هذه السنة.

وقد يكون عجبا للناس الذين لم يحيطوا بسيرة الشافعي علماً أن يقال لهم إنه كان شاعرا، ولكن هذا هو الذي كان، فإن الشافعي كان شاعرا يجيد قول الشعر، وإن لم ينصرف إليه ولم يتوسع فيه، إذ كان مقلا فيه لاشتغاله بالفقه والعلم، وهذا هو المبرّد يقول: (كان الشافعي من أشعر الناس، وآدب الناس، وأعرفهم بالقراءات).

وحُق للشافعي العالم الفقيه إجادة الشعر بجوار علمه وفقهه فقد بدأ أمره بطلب الشعر والأدب وأيام العرب، وقد رحل إلى قبيلة «هُذيل» وأقام بينهم زمنا طويلا يتلقى عن أبنائها اللغة ويحفظ منهم أشعارهم حتى صار حجة في أشعار هذيل..

يقول الأصمعي: صححت أشعار هذيل على فتى من قريش يقال له محمد بن إدريس الشافعي ويقول: قرأت شعر الشنفرى على الشافعي بمكة!

ومن الملاحظ على شعر الشافعي تميزه بقوة الجملة وسهولتها وسلاستها ووضوحها فما يريد إيصاله للمتلقى يصل دونما فلسفة أو تعقيد أو تغريب، وقد كتّبت الخلود لأشعاره لأنها إسلامية ذات موعظة وتأمّل وحكمة ومن النصائح الثمينة وروائع الحكم، لهذا آثرت أن أعتنى بشرح الديوان عن المُضى في السرد المطلق عن حياته وعلمه فقط، فكم في شعره من فائدة لذوى الألباب! وكفى بهذه الكلمات تقدما.. فخير الكلام ما قل ودل.